تاريخ الإرسال: 2013/01/09 - تاريخ القبول للنشر: 2013/05/23 تاريخ النشر: 2013/06/25

البلاغة الجديدة بين البعد الغربي و التلقي العربي
محمد العمري نموذجا

سعود فطيمة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الجلفة

المقدمة

من العلوم ما نضج واحترق وهو النحو، ومنها ما لم ينضج ولم يحترق وهو البلاغة ولايزال الدرس البلاغي إلى اليوم يموج بالحركة والتجدد فلا مسائله مستقرة ، و لا مناهجه متوقفة عن التجدد. في محاولة إلى إعادة صياغة البلاغة أو بتقديم قراءة جديدة للبلاغة القديمة، فماهي خصائص البلاغة الجديدة؟ وهل هناك بلاغة واحدة أم بلاغات متعددة ؟

1ـ البلاغة في النظرية والتاريخ:

تلتقي كلمة بلاغة في اللغة العربية اليوم، مع كلمة ريطورية في التراث البلاغي الغربي، المتحدر من الثقافة اليونانية و اللاتينية عامة. وقد عربها الفلاسفة القدامى «ريطوريقا» (rhetoric ـ rhetorique) وتتردد بين ثلاث مفاهيم كبرى

1.1ـ المفهوم الأرسطي:

الذي يخصصها لمجال الإقناع وآلياته، والذي يعني بالخطاب المحاكي المخيل أي الشعر حصرا، وهذا هو المفهوم الذي إعادته نظريات بيلرمان ووتكه، في اتجاه بناء نموذج منطقي للإقناع.

2.1ـ المفهوم الأدبي:

الذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب، وهو المفهوم الذي استقر لها عبر تاريخ من الانكماش والجمود، رسم «بارت» خطوطه العامة في محاضراته المشهورة عن تاريخ البلاغة القديمة.

3.1ـ المفهوم النسقي:

والذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى، يشمل التخيل والحجاج معا، أي يستوعب المفهومين الأولين، من خلال المنطقة التي يتقطعان فيها، موسعا هذه المنطقة إلى أقصى ما

يمكنه التوسيع، فقد حدث أن تقلص البعد الفلسفي للبلاغة، وتوسع البعد الأسلوبي حتى صار الموضوع لها فكانت نهضة البلاغة حديثا[1].

2ـ في تعريف البلاغة:

البلاغة... هذا البيان الساحر، وذلك القول الرائع الذي نطرب له، وتلك القدرة الجميلة التي تلفنا بهالة من العطر والشذا، من الذي يجعلها تمتاز وتتمز؟ البلاغة أو ما يعرف بفن القول البديع هي التعبير الفني الجميل، وهي الذوق والصدق والأناقة و صحة التعبير[2].

وقديما اختلف أهل العلم في مفهومها ووصفها، وقد أورد بن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، طائفة من أقوال البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تصورها، يبدو أن النظر في كل قول من هذه الأقوال، لا يعطينا مفهوما جامعا للبلاغة ولكن ربما التمس مفهومها المنشود من ثنايا بعض هذه الأقوال:

سئل بعض البلغاء ما البلاغة؟: فقال « قليل يفهم و كثير لا يسأم» وقال آخر: «معان كثيرة في ألفاظ قليلة». وقال آخر:» إصابة المعنى وحسن الإيجاز». و سئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال:» أسهلهم لفظا و أحسنهم بديهة». وقيل لبعضهم ما البلاغة؟ فقال: «إبلاغ المتكلم حاجته لحسن إفهام السامعين» لذلك سميت بلاغة. وقالوا: «البلاغة ضد العي، و العي العجز عن البيان».

وروى عن الإمام علي رضي اللّه عنه قوله: « البلاغة إيضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات...» وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي ما البلاغة عندكم؟ قال: « الإيجاز من غير عجز، و الإطناب من غير خطل». وقيل لأرسطو طاليس: ما البلاغة قال : «حسن الاستعارة»[3].

وإذا أردنا تحديد مفهوم جامع للبلاغة، يمكن القول أنها: « وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداء واضحا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه، وللمخاطبين به». و ينبغي التذكر أن البلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، وإنما هي في الارتباط العضوي بينهما، وأثر لازم لسلامتهما وانسجامهما[4].

3ـ بين البلاغة و الفصاحة:

الفصاحة تعني البيان والوضوح و فصح اللسان إذا عبر عما في نفس المتكلم بوضوح. وهي في اصطلاح علم المعاني: الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال. ويوصف بالفصاحة كل من الكلمة والكلام والمتكلم، بينما يوصف بالبلاغة

1 أنظر : محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل و التداول، ص 12
2 أنظر : بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد ،ج1، علم المعاني، دار العلم للملايين، 1999، ص9
3 عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية علم و معاني، دار النهضة ، ط1، ص 9
4 عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية ص 10

الكلام والمتكلم فقط.

وقد جاء في معجم الصحاح للجوهري « أن البلاغة هي الفصاحة». وقال أبو هلال العسكري: الفصاحة و البلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما لأن أصل كل واحد منهما هي الإبانة عن المعنى و الإظهار له»[1].

ويقول ابن الأثير: « البلاغة شاملة للألفاظ و المعاني، وهي أخص من الفصاحة». وكذلك يقال: «كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا» فهناك خصوصية في تحديد المفهوم[2]. فاللفظ المفرد لا يطلق عليه صفة البلاغة، بينما يمكن وصفه بالفصاحة[3].

ويعد كتاب أسرار البلاغة للجرجاني، أول كتاب يطرح سؤال الهوية هوية الخطاب البليغ، إلا أنه كان محكوما لتوجهه إلى الشعر، ولذلك يصلح أن يسمى أسرار بلاغة الشعر أو لغة الشعر. فقد أقتصر على الجانب الدلالي منه: التشبيه والتمثيل والاستعارة. هذا أمر مهم وقيم ولكنه ليس كل لا شيء.

ومن مظاهر استمرار الغموض في المجال المصطلحي إلى حدود القرن 5 هـ قول الجرجاني في أول دلائل الإعجاز: «ما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، لا يكشف عن مغزاها والمراد منها بوضوح، بل هو أقرب إلى الرمز والإيماء والتنبيه على مكان الخبيئ ليطلب». وقصارى الأمر الإشارة إلى أن هناك نظما وصياغة وتصويرا ونسجا بدون تدقيق للمفاهيم والحدود.

أما ابن سينان الحقاجي، فقد جعل البلاغة أعم من الفصاحة مركزا على الأصوات، ويرى أن تعريفات البلاغة لهذه الفترة كانت نعوتا لا تعريفات جامعة مانعة في تحديد مفهوم البلاغة.[4]

4 البلاغة في التراث العربي:

قبل البلاغة، كان البيان والبديع، وتعد كلمة بديع الوريث الشرعي لأقدم تأمل في الخطاب الأدبي خاصة الشعر على يد ابن المعتز يقول: « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد». إنه ميلاد علم جديد استمر أكثر من أربعة قرون، «ألفته سنة أربع وسبعين ومئتين» ليضم كل صور التعبير ووجوهه اللسانية، إلى أن ظهر كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، الذي يضم الصور غير المنضبطة لتعريف المعاني والبيان، اللذين اقتسما أرض البلاغة. وعمم مفهوم التحسين والمحسن على صور البديع، في حين كان نعت محاسن الكلام عند ابن المعتز يعني ما ليس من البديع[5].

1 سميح أبو مغلي: المفيد في البلاغة العربية ، دار البداية، ط1، 2007، ص10ـ9.
2 حميد آدم ثويني: البلاغة العربية ، المفهوم والتطبيق ،دار المناهج للنشر و الوسيع ، ص14
3 رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشئة المعارف الاسكندرية، ط2، ص 17.
4 أنظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 43.
5 أنظر: محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 37.

الكلمة الأخرى التي تربعت على مجال خطاب المتميز وانتجت لائحة مصطلحية دالة على علم جديد قبل استقرار مصطلح بلاغة هي كلمة بيان، كان ذلك في القرن الثالث هجري مع الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين» .

وبخلاف البديع الذي شغل بإحصاء أوجه البلاغة الشعرية والتمثيل لها ومحاولة تعريفها في غير نسق، اهتم البيان ـحسب الجاحظـ بالفهم والافهام، أي أن وظيفة البيان هي التأثير والإقناع. وقد تدرج الجاحظ من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة، ينتقل من الواحدة إلى الأخرى، وكأنما يتحدث عن الشيء نفسه.[1] يقول الجاحظ : « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو البليغ». كما أنه جمع بين البلاغة والفصاحة والبيان، يقول كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح، وكانت الإشارة أبين وأفصح، كان أنفع و أنجع. والبيان هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي. وثمة من يعد الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان، وقد قدم الجاحظ وسيلة الحوار من خلال الرصيد الخطابي من جهة، و احوال المخاطبين من جهة أخرى. والمهم كيف يكون الخطاب ناجعا فعلا[2].

فللبلاغة العربية إذن مهدان كبيران انتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة.[3] وجاء بعد الجاحظ العسكري وابن سنان ، وأخذا منه أهم مكونين للخطاب الإقناعي هما: المناسبة و الاعتدال إلى أن قزم مفهوم البيان في مفتاح العلوم للسكاكي، وانحاز ابن سنان إلى مصطلح الفصاحة، وفضل العسكري كلمة محايدة: الصناعتين.

لقد كان من المعقول تفرع البلاغة عن البيان، فتحول البيان إلى بلاغة يعني تقديم الإفهام على الفهم، إن لم يعن تخلي عن الفهم لصالح الإفهام نهائيا، أي الخروج من نظرية المعرفة إلى نظرية الإقناع، كما ولدت البلاغة من دائرة الخطابة عند اليونان[4].

5ـ البلاغة وعلم المعاني والبيان والبديع:

إن المتأمل في بيان الجاحظ، ومعاني السكاكي، يلحظ البحث في علاقة الخطاب بالأحوال والمقاصد. وتكمن أهمية عمل السكاكي، في اكتشاف منطقة تقاطع النحو والشعر، أي وصوله إلى عاصمة البلاغة. كما أنه حافظ على التصور الذي استقر للبلاغة العربية من عصره إلى اليوم، ذلك التصور الذي يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع، مع العلم بأنه لم يجعل البديع في مستوى واحد مع المعاني والبيان، أي لم يعتبره علما بل مجرد ذيل للمعاني. والبيان يضم صورا تعبيرية، لا يجمعها سوى كونها ذات طبيعة تحسينية، محسنات لفظية ومعنوية، و بذلك أزيح البديع عن موضوعه الأول عند ابن المعتز.

1 المرجع نفسه، ص 39.
2 عاطف فضل محمد: البلاغة العربية، دار المسيرة للنشر، ط1، سنة 2011، ص 25 .
3 محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 29.
4 المرجع نفسه ، ص 40

وقد عرف السكاكي البلاغة بقوله: « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص، بتوفيه خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشابيه والمجاز والكناية على وجهها، أي أن البلاغة في نظره هي المعنى والبيان.[1]

ولئن قسم العلماء المتأخرون البلاغة إلى ثلاث أقسام: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، فإننا نحاول الابتعاد على هذا التقسيم، غير ناسين ما يوجبه وصل العلوم ببعضها، حين يجب الوصل. يقال إن علم المعاني يعلمنا كيف نركب الجملة العربية، لنصيب بها الغرض المعنوي، الذي نريد على اختلاف الظروف والأحوال. وعلم البيان يعلمنا كيف نصوغ الصورة الفنية، وننوع الأسلوب، لتظهر الدلالة المقصودة المرادة بوضوح. وعلم البديع يعلمنا كيف نوشي الصورة في معناها ومبناها، ونزخرفها الزخرفة الحية ليزيد المعنى بهاء والمبنى رواء[2].

6ـ الحجاج و البلاغة:

يرى ابن رشد أن عمود البلاغة يعتمد على المنطق، وهو الحجج القائمة في الأقيسة الخطابية بلاغية أو ضمائر احتمالية، وهذا المنحنى في تخليق صناعة الخطابة ومنطقية، موجدة في البلاغية الجديدة، ونظرية الحجاج عند بيرلمان في العصر الحديث، ومن حاد عن هذا الطريق، طريق عمود البلاغة الذي يربط البلاغة بالمنطق، صرف اهتمامه للجوانب الأسلوبية المقامية أي للأمور الخارجية غير الجوهرية.

حين نص ابن رشد هنا على التزيين والتنميق، وهو يتحدث عن الناصر غير الجوهرية في الخطابة، كان نظره مركزا على حال البلاغة العربية، حيث عوملت الخطابة بعد الجاحظ، معاملة الشعر، أي نظر إلى الجانب التزيني الخارجي منها، وأهمل الجانب الداخلي الحجي. ولهذا تعبر الوسائل الإقناعية المنطقية، جوهرا للبلاغة في سياق الحديث عن الخطابة[3].

7- البلاغة في الثقافة الغربية:

استوعبت البلاغة الغربية الجديدة ما سبق من البلاغة الغربية القديمة، اغريقية و لاتينية، من خلال التنسيق والنقد ثم البناء. لذلك ستحضر البلاغة الغربية القديمة، من خلال القراءة الحديثة، وهذا خلافا للمجال العربي، إذا ما تزال البلاغة القديمة ناطقة[4]. باسمها غير مستوعبة في الدرس البلاغي الحديث، حين نرجع إلى أحدث معاجم البلاغة والأسلوبية الغربية، نجد كلمة « ريطورية» تدل على معنين اثنين أساسيين، المعنى الحجاجي الإقناعي: الذي يصب في التداولية الحديثة، والمعنى التعبيري الذي يصب في الأسلوبية. وهي ثنائية تغرى باسترجاع ثنائية البيان والبديع في نشأة البلاغة العربية.

1 أنظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 50.
2 أنظر: بكر شيخ أمين: البلاغة العربيةفي ثوبها الجديد علم المعاني، ج1، دار العلم للملايين،ط1، ص 49.
3 أنظر: محمد العمري: البلاغة الجديدة، ص51 ، 52 .
4 أنظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 52ـ51.

فالمعنى الأول، مرتبط بنشأة البلاغة في الغرب. والمعنى الثاني مرتبط بعملية الاختزال التي تعرضت لها البلاغة في تاريخها.[1]

8ـ تعاريف البلاغة الحديثة:

حاول بلاغيون غربيون بعد ح.ع.2، استثمار الأفق العام الذي تفتحه الريطورية القديمة في الواجهتين في اتجاه الحجاج والجدول، وفي اتجاه الأسلوب والشعر. وذلك قبل أن تظهر صياغات عامة ذات طابع سنيمائي في اتجاه الخطاب عامة، فحورت البلاغة القديمة لبناء بلاغة جديدة وحديثة، كعلم النفس والموسيقى والصورة. تم نهضت على إثر نهضة علوم اللغة اللسانيات، السيميائيات، النقد الايديولوجي، الشعرية اللسانية.

9ـ رواد البلاغة الجديدة في فرنسا:

أهمهم رولان بارث، جيرار جنيت، كبيدي فاركا، بيرلمان، تودورف، لقد استطاعوا أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا مع الاعتزاز بوراثة البلاغة القديمة واستحضارها دون حرج. ويصرح بيرلمان بأن الوجهة الصحيحة لحجاج فعال، هي وجهة بلاغة أرسطو.[2] ويصرح رائد علم النص « فان ديك» أن علم النص هو الممثل العصري للبلاغة.[3]

وفي إطار التنوع في الاهتمام بالبلاغة، وإعادة صياغة نظرية جديدة في حوار مع التراث البلاغي وجدت ثلاث توجهات.

1ـ التوجه الحجاجي المنطقي أو الفلسفي: يجر البلاغة نحو المنطق.

2ـ التوجه الأسلوبي الأدبي والشعري: يجر البلاغة نحو الشعر عبر الأدب.

3ـ التوجه الخطابي السينمائي النصي: اعتماد الخطاب.

ولعل أهم الكتب التي عالجت هذا المسار الجديد للبلاغة الجديدة كتاب مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة مشترك بين بيرلمان و أولرشيت تتكه، وكتاب البلاغة والأسلوبية لهانريش بليت.

10ـ التوجه الحجاجي المنطقي:

هذا الكتاب المشترك بين « بيرلمان و تتكه» جدير بالتأمل فهو يسعى إلى ضبط العلاقة بين الحجاج والبلاغة ويعطي امكانية قراءتين:

أـ الحجاج هو البلاغة الجديدة.

بـ الحجاج من البلاغة الجديدة.

1 المرجع نفسه، ص 64.
2 أنظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 65.
3 المرجع السابق، ص 66.

ومن هنا نطرح التساؤل هل الحجاج هو البلاغة الجديدة أو هو منها؟ وهل البلاغة أداة من أدوات الفلسفة للاكتشاف والبرهنة؟

لقد حرص بيرلمان على إبعاد الاحكام الانفعالية والاعتباطية عن البلاغة، وكان منطلقه البحث عن منطق للقيم يقول:» لا يوجد منطق للقيم وما نبحث عنه عولج قديما عبر البلاغة أي « فن الاقناع والاقتناع» وهي نظرية أثرت في مسار البلاغة.[1]

11ـ التوجه الأسلوبي:

البلاغة هي أسلوب، القطب الآخر للبلاغة الحديثة هو قطب بلاغة العبارة، ثم البلاغة المختزلة في الاستعارة وبتفحص كتاب البلاغة العامة، نجده يقدم ما يعرف ببلاغة الصور، التعبير لا يمس الجوانب الاخرى للبلاغة بمفهومها العام عند أرسطو. يقول « جيرار جينت»:» ها نحن اليوم نطلق اسم بلاغة عامة على مصنف في صور التعبير» وبهذا تختزل البلاغة التصوير التعبيري.

12ـ التوجه الخطابي: السينمائيات وعلم النص:

ويبحث هذا التوجه عن بلاغة عامة رائدها التأثير ينصهر فيها المكون الشعري و التداولي، تتجاوز اللغة الطبيعية الى علم العلامات.[2]

13ـ البلاغة الجديدة: عند محمد العمري

يرفض العمري البلاغة المدرسية المختزلة في المعاني والبيان والبديع فقط ، كما يرفض ..... القائل بأن البلاغة مرادف للأسلوبية، فالدرس الحديث أعاد للبلاغة نسقها المفقود في العصور السابقة، حين اختزلت في مجموعة من الصور الشعرية، وإعادة الغربيين للبعد التداولي المقامي، وربطهم الصلة بكتاب فن الخطابة لأرسطو.

وبذلك صارت البلاغة بجناحين: جناح نصي لغوي، وجناح تداولي مقامي، ومنه الحديث عن بلاغة عامة، وبلاغات خاصة: بلاغة الشعر، بلاغة الحجاج. وتحولت البلاغة الى لغة للتواصل بين الاختصاصات العلمية، إذ يحتاج الى أدواتها التخيلية للتبليغ، وأدواتها الحجاجية للإقناع. والبلاغة التي بهدف محمد العمري إلى تأسيسها، هي البلاغة ذات العتاد البديعي والبياني والعروض، فهي كائن قائم بذاته، ولها دساتير خاصة بإقليم الشعر، وإقليم السرد إقليم الحجاج.

الخاتمة:

الدرس البلاغي دائم التجدد والتطور مع حركة الحياة في أنواع أدبية، وفق ارتضاء جماليات تفرضها روح العصر، وتهتدي إليها مواهب الأدباء. كما قال حازم القرطاجني: «وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل

1 أنظر: المرجع نفسه. ص 72.

2 محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 74،77.

أحد إلى نهايته مع نفاذ الأعمار».

قائمة المراجع

أمين بكري شيخ: البلاغة العربية في ثوبها الجديد ،ج1، علم المعاني، دار العلم للملايين، 1999.

تويني حميد آدم: البلاغة العربية ، المفهوم والتطبيق ، دار المناهج للنشر و الوسيع .

الجوني مصطفى صاوي: مدارس البلاغة المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية، سنة 1995

عتيق عبد العزيز: في البلاغة العربية علم و معاني، دار النهضة ، ط1.

عيد رجاء: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشئة المعارف الاسكندرية، ط2.

العمري محمد: البلاغة الجديدة بين التخيل و التداول، افريقيا الشرق، دار البيضاء المغرب، سنة 2005.

عاطف فضل محمد: البلاغة العربية، دار المسيرة للنشر، ط1، سنة 2011.

سميح أبو مغلي: المفيد في البلاغة العربية ، دار البداية، ط1، 2007.